الدور الاجتماعي والثقافي للإماء والقيان في العصر العباسي الأول (١٣٢ – ٢٣٢ هـ / ٧٤٩ – ٨٤٦م)

أطروحة ماجستير في تاريخ الحضارة الإسلامية
إعداد: حسين حمد حسين الفقيه
إشراف: أ. د. علي حسين الشطشاط
كلية الآداب
جامعة بنغازي – ليبيا ٢٠١١

عرض
حسين الفقيه
محاضر بقسم التاريخ
كلية الآداب
جامعة بنغازي – دولة ليبيا

مقدمة

على امتداد العصور الإسلامية، لعبت الإماء والقيان أدوارًا مهمة ومثيرة في التاريخ العربي، وفي صياغة الكثير من وقائعه، وعندما يُذكر اسم (الإماء والقيان) فإنه يتبادر إلى أذهان البعض الشيء الكثير عنهن، فحقائق التاريخ تقول: إن الإماء والقيان كانت لهن أدوارًا هائلة في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، ومختلف ألوان الفنون والآداب. وقد لا يعرف البعض، أن الكثير من الخلفاء والأمراء المسلمين الذين حكموا الدولة الإسلامية في فترات تاريخية تعد من أزهى العصور؛ كانوا من أبناء الإماء؛ الذين قاموا بأدوار عظيمة في تاريخ الدولة الإسلامية، ورفعة شأنها، والذود عن حماها، وتركوا بصماتهم، بأسمائهم وأعمالهم، على كثير من وقائع ذلك التاريخ المجيد.

كما أن العديد من الإماء كتبن صفحات مشرقة ومضيئة في تاريخنا، وعن طريق البعض منهن عبرت الحضارة الإسلامية من المشرق الإسلامي إلى الأندلس، ومن الأندلس إلى أوروبا، حيث كانت الأخيرة تتخبط في الظلام، وحفلت كثير من قصور حكام الدولة الإسلامية على امتداد التاريخ، بالإماء والقيان من كل لون وصنف وجنس، والروايات التاريخية التي تروي علاقتهن بالخلفاء والأمراء والوزراء، كثيرةً جدًا، ومشوقة، وبعض الخلفاء وقع في حب بعضهن، اللواتي كان لهن تسلط ونفوذ كبيرين على معظمهم.

وعندما قامت الدولة العباسية سنة (١٣٢هـ/٧٥٠م) في أعقاب الدولة الأموية، وأرست دعائمها، ازدادت حركة الفتوحات الإسلامية في العصر العباسي الأول واتسع نطاقها، في فترة الخلفاء العظام، أدى ذلك إلى تكاثر السبي المجلوب من البلدان المفتوحة، وكثر وجود الرقيق في قصور الخلفاء، وعندما توفي الخليفة القوي أبو جعفر المنصور، ترك خزانة الدولة ممتلئة بالأموال. وذلك لحرصه البالغ على خزانة الدولة، ونتيجة لعدم ميله للهو والترف، تكدست الثروة وأدى ذلك إلى ميل الخلفاء من بعده إلى الخوض في المجون والدعة، فظهرت الحاجة لاتخاذ الإماء والقيان، ولم يكن الترف خاصًا بالخلفاء وحدهم، بل كان يشمل بعض الأغنياء من عامة الناس، وذلك لازدهار حركة التجارة في العصر العباسي الأول، وتطور الزراعة، فكثرت الأموال، فكان في معظم البيوت جارية أو أكثر، فصار للإماء والقيان دورهن في المجتمع العباسي.

وتكمن أهمية الدراسة في محاولة تسليط الضوء على فترة مهمة من تاريخ الدولة العباسية، ألا وهي العصر العباسي الأول، وخاصةً تاريخ الجواري، حيث يعتبر من الموضوعات الحضارية المهمة التي تستحق الدراسة، بما تميز به هذا العصر من نشاط حضاري واسع النطاق شمل النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية. أيضًا تكمن أهمية هذا الموضوع في توضيح الأثر الاجتماعي، وما طرأ على المجتمع العباسي من تغيرات سببها دخول الإماء الأجنبيات، اللواتي جلبن معهن من بلادهن عادات اجتماعية لم تكن معروفة في المجتمع العربي من قبل، وما نتج أيضًا من ظهور اللحن في اللغة العربية بسبب هؤلاء الأجنبيات، وإبراز تأثيرهن بالسياسة العباسية.

صياغة المشكلة

إن موضوع الإماء والقيان في المجتمع العباسي، خلال العصر الأول (من سنة ١٣٢هـ إلى سنة ٢٣٢هـ / ٧٤٩م – ٨٤٦م) لم يحض بالنصيب الأوفر من الدراسة الوافية والتحليل، حيث إن معظم الدراسات التي تناولت التاريخ العباسي، كانت تذكر هذا الموضوع بشكل فرعي ثانوي، وعابر وسريع، كموضوع عالق في تاريخ بني العباس، ولذلك تكون الحاجة ماسة للخوض في تفاصيل الموضوع، وإبراز الدور المهم لهؤلاء الإماء في تطور الحضارة الإسلامية تارة، وفي خلق عامل من عوامل الضعف في الدولة العباسية تارة أخرى.

وكان لهن الدور المهم في تقدم بعض الفنون، كالشعر والأدب والخط العربي، ومن خلال دراستي عن الموضوع، تبين لي بأن غالبية المراجع التاريخية في مجال الحضارة الإسلامية؛ لم تذكر دور الجواري في تطور الخط العربي، مثل كتاب: تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان، حيث أفرد أحد فصول كتابه في تطور الخط العربي ولم يذكر دور الإماء والقيان في هذا الصدد، كذلك أحمد أمين، في موسوعته، ظهر وضحى الإسلام، وغيرهم....، وكان لزامًا علي إكمال هذا النقص.

ومن ناحية أخرى؛ إبراز الدور الاجتماعي، ومدى التأثيرات في المجتمع العباسي الأول، من نشر للمجون والخلاعة وإشاعة للفاحشة، مما كان له الآثار السيئة على المجتمع في ذلك الوقت،

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وعلى الصعيد السياسي مدى تأثيرهن على الخلفاء. لذلك فإن هذه الفترة لازالت في حاجة للكتابة عنها بشكل مفصل؛ وإلى مزيد من البحث والتوضيح.

أهداف الدراسة

١- إزالة الغموض الذي يكتنف هذا الجانب من تاريخنا الحضاري، لكي يتضح الدور الذي لعبته الإماء والقيان في التاريخ العربي إجمالاً، والتاريخ العباسي خاصة.

٢- إثراء المكتبة العربية بدراسة جديدة في مجال الحضارة الإسلامية، وإبراز أهم المؤثرات التي طرأت على العصر العباسي، والتي ساعدت في تكوينه الاجتماعي.

٣- التوصل إلى معرفة التأثيرات المختلفة التي سببتها الإماء والقيان في الدولة العباسية ومدى تأثر الحضارة الإسلامية بها.

منهج الدراسة

أما عن المنهج المتبع في هذه الدراسة، فهو المنهج التاريخي السردي التحليلي المقارن، الذي يسرد الأحداث التاريخية ويحللها ويقارنها بنظائرها الأخرى، اعتمادًا على المصادر والمراجع التاريخية.

فصول الدراسة

أما فيما يتعلق بخطة البحث، فقد اشتمل البحث على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة. ففي الفصل الأول والذي بعنوان "**مصادر الإماء والقيان**" ركّزت فيه بالدراسة عن المصادر العديدة التي كان لها دور في كثرة الإماء في المجتمع العباسي، فكان الحديث فيه منصبًا على السبي وهو من المصادر الأساسية التي كان لها أهمية كبيرة في توفر الرقيق في الدولة العباسية، فالحروب التي استعرت بين الدولة الإسلامية والدول الأخرى نتج عنها أعداد هائلة من الرقيق وخاصةً من النساء، فصار في كل بيت عدد من الإماء يتسراهن صاحبه، ثم تكلمت عن التجارة ودورها المهم في زيادة أعداد الرقيق في الدولة العباسية حيث كثرت أسواق الرقيق من كل نوع، فكانت هذه التجارة من أربح التجارات في ذلك العصر، فغلت أسعار الإماء بعد رخصهن، أدى ذلك إلى ظهور قوانين لهذه التجارة، فكان البائع والمشتري يخضع لقوانين الحسبة وذلك بكتابة العقود المُبرمة بينهم في البيع والشراء، وما كان للهدايا من دور فعال في انتشار الإماء بين كل فئات المجتمع العربي الإسلامي حيث صار الخلفاء والأمراء وكذلك العامة من الشعب، يتهادون الإماء بينهم كما يتهادون الفاكهة، فصار كل من أراد التقرب من عظيم أن يقدم له أمة أو قينة تُتقن فنًا أو مهنةً هو فيها راغب، كي ينال منه رضًا، كذلك استخدمت الإماء كوسيلة للتجسس على بعض الخلفاء والأمراء، واستعان بهن كثير من الخلفاء في جلب المعلومات والتحري عن الأشخاص المطلوبين للدولة العباسية.

أما الفصل الثاني فقد خصصته لدراسة "**الدور الاجتماعي**" وفيه تكلمت عن المكانة الاجتماعية للإماء والقيان في قصور الخلفاء، فمن الإماء من كانت ذات حظ وافر إذا وقع الخليفة أو أحد الأمراء في غرامها، فتكون لها منزلة عالية في قصر الخليفة، وتكون لها الكلمة النافذة والمطاعة، وأدى تغلغل الإماء الأجنبيات في قصور الخلفاء إلى تنوع الجنس العربي، وميل بعض الخلفاء لأخوالهم الأعاجم، وتنوع في البيئة الاجتماعية وظهور بعض العادات في القصر، وخاصةً في شارات الحكم، وكذلك دورهن الاجتماعي في حياة العامة من الشعب، فظهرت بين أوساط العامة عادات اجتماعية لم تكن معروفة لدى العرب، فكل بيت أصبح يحتوي على عدد من الإماء الأعجميات بجانب الزوجة العربية الحرة، فصار صاحب البيت يُنجب أولادًا من إمائه الأعجميات، فيرث هؤلاء الأبناء من أمهاتهم بعض عادات الأعاجم، فتغير الواقع الاجتماعي العربي، وظهر كمجتمع جديد له سماته الخاصة، كذلك كانت هؤلاء الإماء الأعجميات لا يتقن اللسان العربي، فظهر لحن في اللغة العربية، وورث ذلك الأبناء المولدون، وأفردت القول عن آثارهن الاجتماعية، وتواجدهن في الحانات، وما كان له من الآثار السيئة، في ذلك العصر، حيث كان لتواجد هؤلاء الإماء في الحانات إلى انتشار الفسق والدعارة بين العامة من الشعب، وانتشار ظاهرة شرب الخمر.

وتطرقت في الفصل الثالث لـ "**الأثر السلبي للقيان على العصر العباسي**" وفيه ذكرت التدخل النسائي في شؤون الحكم، حيث صارت الأمة والقينة – نتيجة لغرام الخليفة بها – تأمر وتنهى وتعزل وتولّي من تشاء، فظهر بعض الخلفاء الضّعاف، وأثرت سياستهم في كيان الدولة، وما تركه ذلك من ضعف في سياسة الدولة، حتى إن بعض الإماء تولت الحكم بالوصاية لأن ولي العهد كان لايزال طفلاً، وغالبًا ما كانت الأمة تُنجب من الخليفة أبناء، فيُنافسون إخوتهم من زوجة الخليفة الحرة، على ولاية العهد، فتشتعل بينهم العداوة والبغضاء، مما جعل بعض الإماء لا تتورع عن أن تدبر مكيدة لقتل الخليفة إذا ما علمت أنه سيعطي ولاية عهده لأبنائه من زوجته الحرة، وشرحت ظاهرة بيوت القيان وما كان لها من دور في انتشار الفاحشة والفساد الأخلاقي، حيث كثر المقينون والقيان في أرجاء الدولة العباسية، فصارت مهنة البغاء من المهن التي تُدر المال على أصحابها، فكان المقين يتاجر بالقيان ويُجبر بعضهن على البغاء، ويُعتبر ذلك امتهان لكرامة المرأة، مما حدا ببعض الكُتاب في ذلك العصر أن يؤلفوا في هذه الظاهرة كتبًا، يشجبون فيها هذه الظاهرة الاجتماعية السيئة، ومن بين هؤلاء الجاحظ، كذلك الأثر السيئ للجواري الغلاميات، اللواتي نشرن المجون والعبث في الوسط الاجتماعي في عصر بني العباس، حيث ظهر هذا النوع من الإماء كثقافة جديدة لعصر جديد، فالجارية الغلامية تشبه المرأة الرياضية في عصرنا الحالي، وهؤلاء النسوة اللاتي تشبهن بالرجال، نشرن ثقافتهن في الوسط الاجتماعي بين نساء العامة فصارت المرأة تقص شعرها كالرجال وتلبس الأزر الفارسية، أدى ذلك إلى تفسخ في الأخلاق العامة في النسيج الإسلامي.

وختمت البحث بفصل رابع تحدثت فيه عن "**الدور الثقافي**" للإماء والقيان حيث كان لهن دورًا مهمًا في تقدم وتطور الغناء العربي، وأسهبت القول فيه بالحديث عن أشهر المغنيات من القيان، كذلك وجود بعض الإماء الأعجميات كالتركيات والروميات، أدى إلى ظهور أنواع جديدة من الألحان والمقامات الموسيقية، وامتزج الغناء العربي الأصيل بالغناء التركي والرومي، ومن الآثار الإيجابية للإماء والقيان، تقدم الموسيقى والغناء العربي خطوات واسعة في مجال الحضارة الإسلامية، كذلك دورهن في تطور الشعر العربي وما حدث فيه من تغيير في أساليبه ومعانيه، فالسيد كان يقوم بتعليم جاريته نظم الشعر لتصبح شاعرة تنافس كبار الشعراء في عصرها،

دورية إلكترونية .محكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

فاشتهرت منهن الكثيرات في هذا الفن، وبعد أن كان الشعر يَنْصَبُّ على التغزل بالمرأة العفيفة الحُرة، أضحى الشعر العربي يغلب على طابعه المجون والعُهر، فكان الشاعر لا يتورع في انتقاء الألفاظ البذيئة الفاحشة، لأن المرأة التي يتغزل بها هي الأمة والقينة، والتي لا يغار عليها سيدها، وما وصل إليه الأدب العربي من تقدم وتغيير ملحوظ، فظهر أدب المولدين وهو أدب جديد كان له دورٌ فعال في تطور الحضارة الإسلامية، فكانت معظم الإماء والقيان بارعات في الأدب وفن الخطابة والنثر، وذلك لاعتناء أسيادهن بتعليمهن وتثقيفهن على يد أمهر العلماء في اللغة والأدب، فصار كل سيد يتباهى بجاريته وبعلمها وبأدبها وفصاحة لسانها، كذلك أشهر الجواري اللواتي برعن في الكتابة والخط فمعظم الكتاب كانوا يقتنون الجواري اللواتي لهن موهبة في الخط العربي، وكان سيد الجارية يعتمد عليها في كتابة رسائله وتحريرها، وربما تقوم بنسخ الكتب له، وكذلك براعتهن في العلوم الأخرى.

نتائج الدراسة

من خلال دراستي لموضوع الإماء والقيان في العصر العباسي، تبين لي جليًا أن هؤلاء الإماء كان لهن أدوارًا عديدة أثرت في أحوال الدولة العباسية، وجاء هذا التأثير مزدوجًا، فمنه ما كان إيجابيًا، ومنه ما كان سلبيًا، فالأثر الإيجابي ساهم في رقي الحضارة الإسلامية وتقدمها، أما السلبي فكان من أسباب ضعف الدولة وسقوطها فيما بعد، بعد أن مرت الدولة بتغيرات وتحولات عديدة، سواءً من النواحي الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية.

ودخلت الإماء والقيان للدولة الإسلامية عن طريق عدة مصادر مهمة، فكان للسبي وكثرة الفتوحات وأيضًا للتجارة في الرقيق والهدايا، عاملاً فاعلاً في تكاثرهن في العصر العباسي، وأدين أدورًا عديدة في المجتمع العباسي، خاصة في قصور الخلفاء وحانات بغداد وبيوت العامة، وكان لهن أعظم الأثر في سياسة الدولة، وأدى انتشار بيوت القيان إلى انتشار الفاحشة والرذيلة، وظهور صنف جديد من القيان الماجنات واللاتي عُرفن بالغلاميات، وبرزت الإماء في المجال الثقافي والحضاري، فكان لهن دور مهم في تطور الغناء العربي وتنوعه، وظهور أنواع جديدة من الشعر وتنوع أغراضه، وتقدم الأدب وخاصة أدب المولدين، واللاتي كان لهن الدور الأول في ظهوره.

وفي ضوء ما حوته الدراسة من معلومات عن موضوع الإماء والقيان، فقد توصلت إلى نتائج عديدة من أهمها:

١- أدت الفتوحات الإسلامية - والتي تزايدت خلال العصر العباسي الأول - إلى تكاثر الإماء بأعداد كبيرة، في المجتمع الإسلامي، وخاصةً الأعجميات، كذلك كان لتجارة الرقيق الحظ الأوفر في ذلك.

٢- أدى وجود الإماء في المجتمع الإسلامي، إلى انتشار ظاهرة أمهات الأولاد سواءً في قصور الخلفاء أو بين عامة الشعب في ذلك العصر، وظهرت فئة جديدة يُطلق عليها اسم (المولدين)، الذين كان لهم أثرهم في المجتمع العباسي، فصاروا يحملون صفات مزدوجة من العرب والعجم، وبدى ذلك واضحًا في خلفاء الدولة العباسية، حيث أصبحوا يقلدون الملوك العجم في أساليب وتقاليد الحكم.

٣- كان لانتشار الإماء في الحانات، أثرًا سيءً أدى إلى انتشار شرب الخمر والخلاعة والمجون.

٤- إن كثرة تواجد الإماء في قصور الخلفاء، كان له تأثيرات على السياسة، فكانت المحظيات منهن يتسلطن على الخلفاء، في محاولة منهن للمشاركة في الحكم، وامتد ذلك إلى نهاية العصر العباسي حتى كان ذلك عاملاً فاعلاً من عوامل سقوط الدولة.

٥- إن انتشار دور القيان أو بيوت الدعارة، في المجتمع العباسي، أدى إلى انتشار الفسق، بين الشبان، وظهرت الفاحشة للعلن، وأدى ذلك بدوره إلى محاربة بعض الخلفاء لهذه الرذيلة، كذلك ظهرت بعض الحركات الدينية التي تدعو للزهد والتصوف، وبروز بعض الشعراء الذين اشتهروا بالقصائد الزهدية من أمثال أبي العتاهية وغيره.

٦- أصبح الإقبال على اقتناء الإماء أمرًا سهلاً في ذلك العصر، وذلك نتيجة لكثرتهن في أسواق الرقيق، وسببه اتساع حركة الفتوحات الإسلامية، فكسد بذلك الإقبال على الزواج من العربيات الحرائر، فكثرت الفاحشة فيهن.

٧- ساهمت الإماء والقيان في تطور الحضارة الإسلامية، من خلال ما لعبنه من أدوار ثقافية، وخاصة في فن الغناء العربي، بدخول الألحان الأجنبية عليه، كذلك نبغ عدد كبير منهن في الغناء، وانتقل الغناء العربي من المشرق إلى الأندلس عن طريق هؤلاء الإماء.

٨- نبغ عدد كبير من الإماء في فن الشعر، فكان منهن شاعرات مشهورات، كذلك تطور الأدب العربي وظهر أدب جديد أطلق عليه اسم (أدب المولدين) وهم من أبناء الجواري، وازدهر فن الكتابة والخط العربي لبراعة الكثير منهن في ذلك.

الخاتمة

ويبقى دور آخر للإماء والقيان لم أُعطه حقه من الدراسة، وأوصي الباحثين من بعد بدراسته وتسليط الضوء عليه ألا وهو الدور الاقتصادي، فالإماء والقيان كان لهن أثرهن على أحوال الدولة العباسية الاقتصادية، فما قدمته بين يدي القارئ ما هو إلا بداية لدراسة أخرى قد يطورها ويزيد من قيمتها باحث آخر.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449